

الفصل الخامس

الإعجاز البلاغي

كان من حكمة العليم الخبير جَلَّ جلاله أن يؤيد كل رسول بمعجزة من جنس ما برع فيه قومه لتكون الحجة عليهم أبلغ، ولما نزل القرآن على رسول الله محمد ﷺ بإعجازه العظيم أسكت كل فصيح أو بليغ، وأفحم كل مجادل ومناظر، وأخرس كل معارض ومكابر، وعجز العرب كلهم عن الإتيان بمثله، أو بعشر سور من مثله، أو بسورة واحدة من مثله، فإذا عجز العرب عن ذلك فغيرهم من باب أولى لاسيما وقد كانوا أصحاب دراية لغوية وبراعة أدبية وذوق عالٍ، وما عُرِفَ عن واحدٍ منهم أنه تكلم في القرآن بنقد لغوي أو بيان خطأ بلاغي، بل المعروف عنهم أنه قد أذعنت له عقولهم وتضعضت لعظمته نفوسهم، وتضاءلت أمام بلاغته قرائحهم، وهذا مع حرصهم الشديد على إطفاء نوره، وإصرارهم العنيد على محوه وحربه، ولكن من ذا الذي يستر النهار إذا طلع، ومن ذا الذي يطفى نور الشمس إذا بزغ؟!

ومن أمثلة إذعان أئمة الكفر لبلاغة القرآن وبيانه أنه لما سمع الوليد بن المغيرة من النبي ﷺ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [التك: ٩٠]، قال: والله إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة وإن أسفله لمغدق وإن أعلاه لمثمر، وما يقول هذا بشر^(١)!!

وذكر أبو عبيد أن أعرابياً سمع رجلاً يقرأ: ﴿فَأَصْدَعْ بِمَا تُوْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الحجر: ٩٤]، فسجد الإعرابي وقال: سجدت لفصاحتها، وسمع رجلاً آخر: ﴿فَلَمَّا أَسْتَيْسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا﴾ [يوسف: ٨٠]، قال: أشهد أن مخلوقاً لا يقدر على مثل هذا الكلام.

(١) رواه الحاكم، والبيهقي، وقال محقق الشفا (١/٢٧٣) حسن بمجموع الطرق ط. دار ابن رجب.

وحكى الأصمعي أنه سمع كلام جارية فقال لها: قاتلك الله ما أفصحك! فقالت:
أو يعد هذا فصاحة بعد قول الله تعالى: ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فإِذَا خَفَتْ
عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾
[التَّصْوُّطُ: ٧]، فجمع في آية واحدة بين أمرين ونهيين وخبرين وبشارتين^(١).

يقول ابن عطية في المحرر الوجيز: وكتاب الله لو نزعت منه لفظة ثم أدير النظر
على لفظة أحسن منها لم يوجد وقامت الحجة على العالم بالعرب إذا كانوا أرباب
الفصاحة ومظنة المعارضة^(٢).

ويقول الشيخ أبو زهرة رَحِمَهُ اللهُ هُنَاكَ حَقِيقَتَانِ ثَابِتَتَانِ:

الأولى- أن قريشاً مع شدة ملاحاتها للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومع أن القرآن قد
ذكر آباءهم بغير ما يحبون وذكر أوثانهم بغير ما يؤمنون لم يتحركوا؛ لأن يقولوا مثله
وأذعنوا لبلاغته وقوته.

الثانية- أن القرآن جذب العرب إلى الإيمان بما فيه من روعة وقوة بيان وإيجاز
معجز وأقوال محكمة وقصص تطول وتقصر وهي مملوءة بالعبرة في طولها وقصرها
وإطنابها الرائع وإيجازها الذي لا يدع صغيرة ولا كبيرة إلا أوفأها بالعبرة الناصعة
والإشارة الواضحة، فالقرآن هو الذي جذب إلى الإيمان بما فيه من بيان أدركوا أنه
فوق طاقة البشر، وأنه حقائق ثابتة كما قال تعالى: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا
مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ﴾ [الحج: ٢٥]، وإن الثابت مع ذلك
أنه لم يحاول أحدٌ من أهل البيان أن يأتي بمثله ولم يعرف ذلك^(٣).

(١) «الشفاء» (١/١٧٢)، ط: الصفا.

(٢) «المحرر الوجيز» لابن عطية الأندلسي (١/٢٧٨).

(٣) «المعجزة الكبرى» للشيخ محمد أبي زهرة، ص (٥٣-٥٤) باختصار، ط: دار الفكر.

ومن وجوه الإعجاز البلاغي في القرآن ما يلي:

أولاً - أسلوبه الفريد ونظمه العجيب:

حيث لم يوجد قبل القرآن ولا بعده نظير له في نظمه وأسلوبه، فالعرب إنما يعرفون الشعر والنثر والقرآن يخالف الشعر ويخالف النثر، وما استطاع أحدٌ من العرب مماثلته، بل حارت فيه عقولهم، ولم يهتدوا إلى مثله في جنس كلامهم من نثر أو نظم أو سجع أو شعر.

ولما سمع الوليد بن المغيرة القرآن رَقَّ فجاءه أبو جهل منكراً عليه، فقال: والله ما منكم من أحدٍ أعلم بالأشعار مني والله ما يشبه الذي يقول شيئاً من هذا.

وفي خبر آخر أنه حين جمع قريشاً عند حضور الموسم وقال: إن وفود العرب ترد فأجمعوا فيه رأياً، لا يكذب بعضكم بعضاً، فقالوا: نقول كاهن، قال: والله ما هو بكاهن ما هو بزمزمته ولا سجعه، قالوا: مجنون، قال: ما هو بمجنون ولا بخنقه ولا وسوسته، قالوا نقول: شاعر، قال: ما هو بشاعر، قد عرفنا الشعر كله رجزه وهزجه وقريضه ومبسوطه ومقبوضه، ما هو بشاعر، قالوا: فنقول ساحر، قال: ما هو بساحر ولا نفثه ولا عقده، قالوا: فما نقول؟ ال: ما أنتم بقائلين من هذا شيئاً إلا وأنا أعرف أنه باطل وإن أقرب القول فيه أنه ساحر فإنه سحرٌ يفرق بين المرء وابنه، والمرء وأخيه، والمرء وزوجه، والمرء وعشيرته، فتفرقوا وجلسوا على السبل يحذرون الناس^(١).

وقال أبو ذر الغفاري رضي الله عنه: والله ما سمعتُ بأشعر من أخي أنيس لقد ناقض اثني عشر رجلاً في الجاهلية أنا أحدهم وإنه انطلق إلى مكة وجاء إلى أبي ذر بخبر النبي صلى الله عليه وسلم قال أبو ذر له: فما يقول الناس؟ قال يقولون شاعر، كاهن، ساحر، لقد سمعت قول الكهنة فما هو بقولهم، ولقد وضعته على أقرأ الشعر فلم يلتئم، وما يلتئم على لسان أحدٍ بعدي أنه شعر وإنه لصادق وإنهم لكاذبون^(٢).

(١) «الشفاء» (١/ ١٧٤) ط. الصفا، «تفسير القرطبي» (١٩/ ٥٧)، ط: التوفيقية.

(٢) رواه مسلم برقم [٢٤٧٣].

يقول الرافعي رَحِمَهُ اللهُ: إن القرآن إنما ينفرد بأسلوبه؛ لأنه ليس وضعًا إنسانيًا البتة، ولو كان من وضع إنسان لجا على طريقة تشبه أسلوبًا من أساليب العرب أو من جاء بعدهم إلى هذا العهد، ولا من الاختلاف فيه عند ذلك بُدُّ في طريقته ونسقه ومعانيه: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٦]، ولقد أحسَّ العرب بهذا المعنى واستيقنته بلغاؤهم ولولاه ما أفحموا ولا انقطعوا من دونه؛ لأنهم رأوا جنسًا من الكلام غير ما تؤديه طباعهم، وكيف لهم في معارضته بطبيعة غير مخلوقة؟

ثانيًا - الروعة والهيبة له في قلوب السامعين:

ومن وجوه إعجاز القرآن البلاغية الروعة التي تلحق قلوب سامعيه وأسماعهم عند سماعه، والهيبة التي تعتر بهم عند تلاوته لقوة حاله وعظمة تأثيره، وبلاغة لفظه، وجلال معناه، فإن كان السامع له من المؤمنين به فإنه يداخله روعة في أول سماعه وخشية ثم لا يزال يجد في قلبه هشاشة إليه ومحبة له وطمأنينة بسماعه، وإن كان السامع له من المكذبين له فإنه يستثقل سماعه ويزده نفورًا ويود أن يقطع عنه لكرهته له (١)، كما قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذُكِرْتِ رَبِّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَوْ أَعْلَىٰ أَدْبَرَهُمْ نُفُورًا﴾ [الأنبياء: ٤٥-٤٦].

وقال الله تعالى في بيان تأثير هذا القرآن: ﴿نَفْسَعْرُ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَنْفَكِرُونَ﴾ [الحشر: ٢١].

(١) «الشفاء» (١/ ١٨٠)، «البرهان» للزركشي (٢/ ١١٤)، ط: دار الكتب العلمية.

وانظر لتلك الروعة التي تأخذ بالألباب وتؤثر في النفوس تأثيراً بليغاً حتى تحشع له القلوب والجوارح وتخرس ساجدة مع النبي ﷺ برغم أن من هؤلاء السامعين قوم مشركون مكذبون وآخرون من الجن، ولكن كل سامع لهذه التلاوة من النبي ﷺ خر ساجداً لله عز وجل معه، كما روى البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: سجد النبي ﷺ بالنجم، وسجد معه المسلمون والمشركون والجن والإنس (١).

وقال الملاء من قريش ذات يوم: قد التبس علينا أمر محمد، فلو التمستم رجلاً عالماً بالشعر والكهانة والسحر فكلمه ثم أتانا ببيان من أمره، فقال عتبة بن ربيعة: والله لقد سمعت الكهانة والشعر والسحر وعلمت من ذلك علماً لا يخفى عليّ إن كان كذلك فقالوا: ايته فحدثه، فأتى النبي ﷺ، فقال له: يا محمد أنت خير أم قصي بن كلاب؟ أنت خير أم هاشم؟ أنت خير أم عبد المطلب؟ أنت خير أم عبد الله؟ فبم تشتم أهتنا وتضلّل آبائنا وتسفّه أحلامنا وتذم ديننا؟ فإن كنت تريد الرياسة عقدنا إليك ألويتنا، فكنت رئيسنا ما بقيت، وإن كنت تريد الباءة زوجناك عشر نساء من أي بنات قريش شئت، وإن كنت تريد المال جمعنا لك ما تستغنى به أنت وعقبك من بعدك، وإن كان الذي يأتيك رثياً من الجن قد غلب عليك بذلنا لك أموالنا في طلب ما تتداوى به أو نغلب فيك، والنبي ﷺ ساكت، فلما فرغ قال: «قد فرغت يا أبا الوليد؟»

قال: نعم، قال: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾ حَمَّ ﴿١﴾ تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كَتَبْتُ فَصَّلْتُ آيَاتَهُ، قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿﴾ إلى قوله: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿﴾ [فَصَّلَتْ: ١-١٣]، فوثب عتبة ووضع يده على فم النبي ﷺ وناشده الله والرحم ليسكتن ورجع إلى أهله ولم يخرج إلى قريش فجاءه أبو جهل، فقال: أصبوت إلى محمد؟ أم أعجبتك طعامه؟ فغضب عتبة وأقسم ألا يكلم

محمدًا أبدًا، ثم قال: والله لقد تعلمون أني من أكثر قريش مالا، ولكني لما قصصت عليه القصة أجباني بشيءٍ والله ما هو بشعر ولا كهانة ولا سحر، ثم تلا عليهم ما سمع منه إلى قوله: ﴿مَثَلُ صَعِقَةٍ عَادٍ وَتَمُودَ﴾، وأمسكت بفيه وناشدته بالرحم أن يكف، وقد علمتم أن محمدًا إذا قال شيئًا لم يكذب، فوالله لقد خفت أن ينزل بكم العذاب يعني الصاعقة^(١).

وقد التقى يومًا على جسر بغداد ابن الرواندي الزنديق هو وأبو علي الجبائي المعتزلي، فقال له ابن الرواندي: يا أبا علي، ألا تسمع شيئًا من معارضتي للقرآن ونقضى له؟ قال الجبائي: أنا أعلم بمخازي علومك وعلوم أهل دهرك، ولكن أحاكمك إلى نفسك، فهل تجد في معارضتك له عذوبة وهشاشة وتشاكلاً وتلاؤماً ونظماً كنظمه وحلاوة كحلاوته؟ قال: لا والله، قال: قد كفيتني فانصرف حيث شئت^(٢).

يقول القاضي عياض رَحِمَهُ اللهُ: وقد عدَّ جماعة من الأئمة ومقلدي الأمة في إعجازه وجوهًا كثيرة منها أن قارئه لا يملُّه وسامعه لا يمجُّه، بل الإكباب على تلاوته يزيده حلاوة وترديده يوجب له محبة، لا يزال غصًّا طريًّا، وغيره من الكلام، ولو بلغ في الحسن والبلاغة مبلغه يمل مع التردد ويعادي إذا أُعيد، وكتابتنا يستلذ به في الخلوات، ويؤنس بتلاوته في الأزمان، وسواه من الكتب لا يوجد فيها ذلك حتى أحدث أصحابها لحونًا وطرفًا يستجلبون بتلك اللحن تنشيطهم على قراءتها^(٣).

ثالثًا - جمع القرآن بين صفتي الجزالة والعذوبة:

ومن وجوه الإعجاز البلاغي في القرآن جمعه بين صفتي الجزالة والعذوبة وهما كالمتضادين لا يجتمعان غالبًا في كلام البشر؛ لأن الجزالة من الألفاظ لا توجد إلا بما

(١) أخرجه الحاكم [٣٠٠٢]، وصحح إسناده، وقال الهيثمي في المجمع (٢٠/٦)، رواه أبو يعلى وفيه الأجلح الكندي وثقه ابن معين وغيره، وضعفه النسائي وغيره، وبقية رجاله ثقات، قلت: وقد سبق ذكره والإشارة إلى ضعفه.

(٢) «إعجاز القرآن» للرافعي، ص [١٨٣].

(٣) «الشفاء» للقاضي عياض (١/١٨٣)، ط: الصفا.

يشوبها من القوة وبعض الوعورة، والعدوبة تتطلب سلاسة وسهولة، فمن أراد الجزالة فإنما يقصد الفخامة والروعة في الأسماع مثل الفصحاء من الأعراب، وفحول الشعراء منهم، ومن أراد العدوبة قصد أن يكون الكلام في السماع أعذب وأشهى وذلك كأشعار المخضرمين والمتأخرين، وترى ألفاظ القرآن جمعت في نظمه كلتا الصفتين وذلك من أعظم وجوه البلاغة^(١).

قال بعض العلماء: إن في القرآن شيئاً مما لا يتفق للناس إلا أمثلة من الإعجاز البلاغي صناعة ولم يكن يعرفه العرب ولا انتبهوا إليه كهذا النوع البديعي الذي يسمونه ما لا يستحيل بالانعكاس وهو الذي يقرأ من أوله وآخره سواء ومنه قوله تعالى: ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ﴾ [يَس: ٤٠].

وقوله تعالى: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ [المَلَأْنَا: ٣].

أمثلة من الإعجاز البلاغي في القرآن الكريم

أولاً - بلاغة الحذف والإثبات:

١ - قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾ [الدَّارَات: ٢٩]، التقدير أنا عجوز، وذلك حين بشرت الملائكة زوج إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ بِالْإِنْجَابِ بعد أن طعنت في السن، وهذا الحذف إنما هو للإيحاء بالموقف النفسي الذي كانت عليه زوج إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ آنذاك^(٢)، وهو شعورها بالعجب والدهشة عند تلقيها تلك البشرى التي طالما تافت إليها وتقطعت زهرة شبابها حسرة على فواتها والعجب والدهشة إنما يتعلقان بالمسند «عجوز» لا بالمسند إليه المحذوف «أنا» إذ كيف تنجب من بلغت سن اليأس وصارت عجوزاً فحذف المسند إليه «أنا» إذن هو للإيحاء بمدى تعلق

(١) «البرهان في علوم القرآن» للزركشي (٢/ ١١٤-١١٥).

(٢) المقصود بها هنا السيدة سارة لا هاجر كما هو واضح.

مشاعرها بالمسند أو لنقل كأنها لم تعد تشعر بذاتها إلا في هذا العجز ومن ثم أغفلت ذكر الذات (١).

٢- قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكٌ وَأَبْكِي ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتٌ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾﴾ [الْحَجَرَةُ: ٤٣-٤٤]، وقال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩﴾﴾ [الزُّمَرُ: ٩]،

وقال تعالى في قصة موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ مع ابنتي العبد الصالح: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمْ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصَدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ ﴿٢٤﴾﴾ [الْقَصَصُ: ٢٣-٢٤]

فالأفعال: (أضحك- أبكى- أمات- أحيأ) في الآية الأولى متعدية قطعاً إلى مفعول، فالتقدير أضحك الإنسان وأبكاه، وأماته وأحيأه، فحذف المفعول ونزل الفعل منزلة الفعل اللازم؛ لأن الغرض إثبات هذه الأفعال له جل شأنه دون اعتبار تعلقها بالمفعول، فهو عَزَّ وَجَلَّ بيده الإضحاك والإبكاء، والإماتة والإحياء.

والفعل يعلم في الآية الثانية متعدٍ أيضاً إلى مفعول، ولكنه حذف؛ لأن الغرض إثبات الأفضلية للعالم على غير العالم على الإطلاق، فالعلم بالشيء أفضل من الجهل به أيًا كانت ماهية ذلك الشيء أو قيمته (٢).

أما الآية الثالثة فقد حذف فيها مفعول كل من الأفعال (يسقون- تذودان- نسقي- فسقى)، وهو الغنم والإبل التي وقعت عليها هذه الأفعال؛ وذلك لأنه لما كان الغرض لا يتعلق بذكر هذه المفاعيل المحذوفة، وكان التركيز إنما هو على الأحداث في ذاتها جاءت الأفعال مطلقة فتعاطف موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ مع هاتين الفتاتين إنما كان

(١) «دراسات في علمي المعاني والبديع»، للدكتور حسن طبل ص (٢٨-٢٩)، ط: الزهراء.

(٢) ليس هذا على إطلاقه، فالعلم منه ما هو فرض عين ومنه ما هو فرض كفاية، ومنه ما هو مباح، ومنه ما هو حرام تعلمه كالسحر والتنجيم، وغير ذلك.

لمباشرتهما هذه الأفعال الشاقة على مثلهما، أما كون المسقي أو المذود غنماً أو إبلاً فلم يكن له من أثر في هذا الموقف الإنساني النبيل.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [يُونُسُ: ٢٥]، فالفعل يدعو في الآية الكريمة فعل متعدّد حذف مفعوله وذلك يفيد عمومية الدعوة، فهي تشمل الإنس والجن، مسلمهم وكافرهم، وأولهم وآخرهم، ومن ثم كان ذكر المفعول في قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾؛ لأن التعميم غير مراد في الفعل يهدي؛ لأن الهداية هداية خاصة يختص بها الله عَزَّ وَجَلَّ الصالحين من عباده^(١).

٣- قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَالصُّحْحَىٰ (١) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ (٢) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾ [الضحى: ١-٣]، يرى البلاغيون أن مفعول الفعل قلّى هو ضمير المخاطب، وقد حذف لرعاية الفاصلة والتوافق الصوتي مع أواخر الآيات قبلها وبعدها، ولكن يضاف إلى ذلك أن الحذف هنا يحقق غرضاً معنوياً، فالآية تنفي التوديع والقلّى أي الهجر والبغض، فالله عَزَّ وَجَلَّ يطمئن نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعد فترة انقطاع الوحي بأنه لم يهجره أو يبغضه كما زعم ذلك أعداؤه من الكفار حين حدثت تلك الفترة، ولما كان هناك فارق دلالي بين الهجر والبغض إذ الهجر لا يكون إلا للحيب، أما البغض فهو للخصوم والأعداء؛ لذلك جاءت الآية الكريمة مراعية ذلك حيث ذكرت ضميره صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في جانب نفي الهجر ﴿مَا وَدَّعَكَ﴾ ولم تذكره في جانب نفي البغض ﴿وَمَا قَلَىٰ﴾ إعلاءً لشأنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يذكر ضميره في جانب المقت والكره وحتى لو كان هذا الجانب منفياً!!^(٢)

٤- قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يَحْمِلُ مِنْهُ شَيْءٌ﴾ [فَاتِحَةُ: ١٨]، المقصود هنا هو النفس الإنسانية المثقلة بالذنوب يقف صاحبها يوم القيامة مثقلاً

(١) السابق ص (٣٧-٣٩).

(٢) السابق، ص [٤١].

بذنوبه كما ورد في نصوص أخرى كقوله تعالى: ﴿وَلِيَحْمِلَنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيَسَّئَلَنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْعُرُونَ﴾ [الجن: ١٣]، إن حذف الموصوف كلمة «نفس» مع إبقاء الصفة «مثقلة» وتأنيتها وإطلاقها بغير موصوف معين يورد على خاطر صورة المرأة الحامل المثقلة بحملها كم تعاني منه، وإن تدع البشر جميعاً إلى حملها فضلاً عن أولي القربى، فهل يستطيع أحد أن يحمل عنها حملها أو يخفف عنها شيئاً مما تعانيه من ذلك الحمل؟! إنه حملها الخاص الذي لا يملك أحد على وجه الأرض كلها أن يحمل شيئاً منه إنما هي معاناتها الخاصة التي لا يستطيع أحد أن يعاونها فيها فضلاً عن أن يخففها عنها، كم تبلغ هذه الصورة في تعميق المعنى المقصود الذي يرد أحياناً بصيغ أخرى: ﴿وَلَا نُزِرُ وَإِرَّةٌ وَزَرَ أُخْرَى﴾ [الإنش: ١٥]، ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ [القدر: ٣٨]، وكم تؤثر هذه الصورة في نفس من ﴿كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ سَهِيدٌ﴾ إنه الإعجاز^(١).

٥ - قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ﴾ (١٧) صُمْ بُكُمْ عُمِي فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿[البقرة: ١٧-١٨]، جاء في آخر هذه الآية حذف لو او العطف، فالتقدير صُمْ وَبِكُمْ وَعُمِيٌّ بِدَلِيلٍ مَجِيءٍ الْوَاوِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿صُمْ وَبِكُمْ فِي الظُّلُمَاتِ﴾ [الأنجاء: ٣٩]، وحذف الواو هنا يشير إلى تلازم هذه الصفات حتى لكانها شيئاً واحداً أحاط بحواسهم، فهم لا يسمعون، لا يتكلمون، لا يبصرون^(٢).

٦ - قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرُونَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ﴾ [البقرة: ١٦٥]، حذف جملة الجواب والتقدير، ولو يرى الذين ظلموا إذ يرون العذاب لكان منهم ما لا يدخل تحت الوصف من الندم والحسرة

(١) لا يأتون بمثله ص (٢٨-٢٩)، ط: دار الشروق.

(٢) «الحذف البلاغي في القرآن»، ص [١٠٥]، ط: مكتبة القرآن.

ووقوع العلم بظلمهم وضلالهم، فحذف الجواب ليذهب السامع مع كل مذهب، فلا يتصور مكروهاً إلا وهو داخل في حالهم، ولو ذكر جواب لاقتصر عليه دون غيره^(١).

٧- أما في إثبات المسند وعدم حذفه فقد قال الله تعالى: ﴿ قَالُوا أَأنتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا بُرْهِيمُ ﴾ (٦٣) قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ ﴿ [الأنبياء: ٦٣]، وقال الله تعالى: ﴿ قَالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظْمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴾ (٧٨) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴿ [يونس: ٧٨-٧٩].

ذكر المسند في الآيتين (فعله- يحييها) وكان من الممكن حذفه لوقوعه فيها جواباً عن استفهام، ولكنه ذكر لما يتعلق به من غرض بلاغي لا يحققه الحذف، فالآية الأولى جاءت على لسان إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ ورداً على قومه حينما سألوه هذا السؤال التقريري: أنت فعلت هذا؟ أي أنت الذي كسر الأصنام؟ ففي تصدير الإجابة عن هذا بذكر المسند من التعريض بهم، والسخرية من ضلالهم ما لا يتحقق لو حذف، فذكر هذا الفعل المسند إلى كبير الأصنام يوحى بمدى ما هم عليه من ضلال إذ كيف يعبدون أصناماً لا يستطيع كبيرها أن يفعل أو ينفع أو يضر؟!!

أما الآية الثانية ففي ذكر المسند فيها (يحييها) تنبيه على ضلال السائل وتوبيخ له على جهله، فقد استبعد إحياء العظام البالية وجهل أو تجاهل أن إحياءها ليس ببعيد على من خلقها أول مرة من عدم.

وقال الله تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ [الحج: ٤٦].

والذكر الذي يعنيه البلاغيون في هذه الآية هو ذكر الاسم الموصل الواقع صفة للقلوب في آخرها ﴿ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾، فتلك الصفة كان لا يمكن الاستغناء عنها

لولا ما يتعلق بها من غرض بلاغي لا يتحقق بدونها، فمن المعلوم أن القلوب لا تكون إلا في الصدور، ولكن في ذكر ﴿الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾، هنا تأكيداً وتقريراً للمعنى المسوقة من أجله الآية وهو نسبة العمى إلى القلوب لا إلى الأبصار التي من المعهود نسبتها إليها وتأكيد المعنى وتقريره بهذا الذكر يتأزر مع ذلك الاستفهام التوبيخي الذي صدرت به الآية ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾، فهذا وذاك يؤكدان أن الإبصار الحقيقي ليس مجرد رؤية العين للمبصرات، بل هو ما يتبع تلك الرؤية من اعتبار وتفكير يستتبعان استنارة البصائر وهداية القلوب^(١).

٨- حذف الحرف:

منه قوله تعالى: ﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ أَنْ تَضَلُّوا﴾ [النِّسَاءُ: ١٧٦]، أي لئلا تضلوا فحذفت لا أي لا تتمد بكم، ومنه قوله تعالى: ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ [التَّصْوَلُ: ٧٩]، والتقدير وقال الذين يريدون الحياة الدنيا، فحذفت الواو لتتوفر العناية على بيان فساد قول هؤلاء وكأنهم قالوه دون روية أو تفكير^(٢).

ثانياً- البلاغة في التكرار^(٣):

١- قَالَ تَجَالَى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الْفَاتِحَةُ: ٥]، كرر إياك وقدمه، ولم يقتصر على ذكره مرة واحدة، كما اقتصر على ذكر أحد المفعولين في آيات كثيرة منها: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا﴾ [الضُّحَى: ٣] أي ما قلاك، وكذلك الآيات التي بعدها معناها «فأواك-فهداك-فأغنأك»؛ لأن في التقديم فائدة وهي قطع الاشتراك ولو حذف لم يدل

(١) «دراسات في علمي المعاني والبديع» (٤٣-٤٤)، ط: مكتبة الزهراء بالقاهرة.

(٢) «الحذف البلاغي في القرآن الكريم» (١٠٥-١٠٧)، ط: مكتبة القرآن.

(٣) مستفاد من كتاب «أسرار التكرار في القرآن» لتاج القراء محمود بن حمزة الكرمانى، ط. دار الفضيلة، ولا يأتون بمثله، ط: دار الشروق.

على التقديم؛ لأنك لو قلت إياك نعبد ونستعين لم يظهر هل التقدير إياك نعبد وإياك نستعين أم إياك نعبد ونستعينك، ولذلك كررت، فالفرق بينها أن معنى: «إياك نعبد وإياك نستعين» لا نعبد غيرك ولا نستعين بسواك، ومعنى: «إياك نعبد ونستعين» لا نعبد غيرك ونستعين بك وبسواك، فكرر إياك لقطع الاشتراك في أي من الفعلين.

٢- قوله تعالى: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦]، كرر الصراط وذلك أن الصراط هو المكان المهيأ للسلوك، فذكر في الأولى المكان ولم يذكر السالكين فأعاده مع ذكرهم، فقال: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ أي الذي يسلكه النبيون والمؤمنون، ولهذا كرر أيضًا في قوله تعالى: ﴿إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [٥٤] صِرَاطَ اللَّهِ [الشورى: ٥٢-٥٣]؛ لأنه ذكر المكان المهيأ فأعاده مع ذكره، فقال: ﴿صِرَاطَ اللَّهِ﴾ أي الذي هيأه للسالكين.

٣- قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّٰدِقِينَ وَالصَّٰبِعِينَ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٦٢]، وقال تعالى في سورة الحج: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّٰبِعِينَ وَالصَّٰدِقِينَ وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [الحج: ١٧].

وقال تعالى في سورة المائدة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّٰدِقُونَ وَالصَّٰبِعُونَ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾

[المائدة: ٦٩]

تأمل المعاني التالية:

إن النصارى مقدمون على الصابئين في الرتبة؛ لأنهم أهل كتاب فقدمهم في البقرة، والصابئون مقدمون على النصارى في الزمان؛ لأنهم كانوا قبلهم فقدمهم في

الحج، وراعى في المائدة بين المعنيين وقدمهم في اللفظ وأخرهم في التقدير؛ لأن تقديره والصابئون كذلك.

وقيل: إن ترتيب الطوائف في المائدة جامع للترتيب بالكتب وبالزمان ورفعها بين المنصوبات يدل على نية تأخيرهم وترتيبهم في البقرة بالكتب السماوية فأخر الصابئين؛ لأنهم لا كتاب لهم، وترتيبهم في الحج بالأزمة فقدمهم؛ لأنهم قبل النصارى، ولم يقصد الترتيب بالكتب؛ لأن أكثر المذكورين ممن لا كتب لهم. وهذا المعنى اللغوي منه قول الشاعر:

فإن يك أمس بالمدينة رحله فإني وقيارٌ بها لغريبُ

وقيار: اسم فرس أو رجل أو جمل^(١) أراد إني لغريب وقيار كذلك.

٤- قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَٰلِكُمْ اللَّهُ فَالِقُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النَّجْمَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرًّا وَمُسْتَوْدَعًا قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾ وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَبِهٍ انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿الْأَنْعَامُ: ٩٥-٩٩﴾.

إن التنويع في عبارات الآيات واضح بصورة تلفت النظر، ففي الآية الأولى لم يقل «يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي» كما هو المعتاد في الآيات الأخرى، ولكن قال: «مخرج الميت من الحي»، وهذا تنويع، وفي الآية الثانية لم يقل فالق الإصباح وجاعل الليل سكناً كما هو المعتاد في عطف الاسم على الاسم، ولكن

قال: ﴿وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا﴾، وهذا تنويع، وفي الآية الرابعة لم يقل هو الذي أنشأكم من نفس واحدة فجعل لها مستقرًا ومستودعًا كما يتوقع أن يكون السياق العادي، فجرى العطف بين فعل وفعل وإنما حذف الفعل الثاني وجيء بمعموله مرفوعًا كأنه نائب فاعل فجعل لها مستقر ومستودع، وهذا تنويع.

وفي الآية الخامسة تكرر الفعل: ﴿فَأَخْرَجْنَا﴾ في الزمن الماضي وجاء بعده المضارع «نخرج»، وفي هذا تنويع ثم تجاوز في العبارة اسمان مرفوعان بالضممة: ﴿قِنَوَانٌ ذَانِيَةٌ﴾ واسمان أحدهما منصوب بالكسرة والثاني مجرور بالكسرة، ﴿وَجَنَدٍ مِّنْ أَعْنَابٍ﴾ واسمان منصوبان بالفتحة، ﴿وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ﴾، وأخيرًا جاءت كلمة في صيغتين مختلفتين ﴿مُشَبَّهًا﴾ و﴿وَعَيْرٌ مُّشَبَّهٍ﴾ وذلك كله تنويع، وذلك من الإعجاز.

٥- كلمة ﴿تَبَارَكَ﴾ هذه اللفظة لا تستعمل إلا لله عزَّ وجلَّ، ولا تستعمل إلا باللفظ الماضي، وقد وردت في سورة الفرقان في ثلاثة مواضع في قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ﴾ [الْفُرْقَان: ١]، وقوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّنْ ذَلِكَ﴾ [الْفُرْقَان: ١٠]، وقوله تعالى: ﴿نَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا﴾ [الْفُرْقَان: ٦١]، تعظيمًا لذكر الله، وخصت هذه المواضع بالذكر؛ لأن ما بعدها عظام.

(أ) ذكر الفرقان وهو القرآن المشتمل على معاني جميع كتب الله.

(ب) ذكر النبي محمد ﷺ وهو أعظم الأنبياء والرسل والخلق جميعًا.

(ج) ذكر للبروج والسيارات والشمس والقمر والليل والنهار ومثلها:

﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [عَافٍ: ٦٤]، ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [الْمُنْتَوَى: ١٤]، و﴿تَبَرَّكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾ [الْمُلْك: ١].

٦- قوله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ آءِ الْآءِ رَبِّكُمَا تُكذَّبَانِ﴾ تكررت هذه الآية إحدى وثلاثين مرة

في سورة الرحمن، ثمانية منها ذكرت عقيب آيات، فمنها تعداد عجائب خلق الله وبدائع

صنعه ومبدأ الخلق ومعادهم، ثم سبعة منها عقيب آيات فيها ذكر النار وشدائدھا على عدد أبواب جهنم، وحسن ذكر الآلاء عقيبيھا؛ لأن في صرفھا ودفعھا نعمًا توازي النعم المذكورة، أو لأنها حلت بالأعداء وذلك يعد أكبر النعماء.

وبعد هذه السبعة ثمانية في وصف الجنان وأهلها على عدد أبواب الجنة، وثمانية أخرى بعدها للجنيتين اللتين دونهما، فمن اعتقد الثمانية الأولى وعمل بموجبها استحق كلتا الثمانيتين من الله ووقاه السبعة السابقة.

٧- قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيْضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ النَّاسِ وَالْدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ، كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّكَ اللَّهُ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿﴾ [فَاتِحَةُ: ٢٧-٢٨]، تجد في الآية لفظًا واحدًا تكرر لكن تنوع إيراد بصيغ مختلفة ما بين التذكير والتأنيث والرفع والنصب، تأمل في الفرق بين هذه الألفاظ:

﴿ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا ﴾ .

﴿ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا ﴾ .

﴿ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ ﴾ .

٨- قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِذْ بَخَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُدَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿﴾ [الْبَقَرَةُ: ٤٩].

وقال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيَدَّبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿﴾ [إِبْرَاهِيمَ: ٦].

الآية الأولى خطاب من الله تعالى إلى بني إسرائيل يذكرهم بنعمه عليهم ويخص بالتذكير تلك النعمة الكبرى وهي تنجيتهم من آل فرعون الذين يسومونهم سوء

العذاب، بالإضافة إلى التغيير في صيغة الفعل (نجيناكم-أنجاكم) أحدهما متعدياً بالتضعيف والآخر متعدّ بالهمزة وأحدهما بضمير المتكلم «نجيناكم»، والثاني بضمير الغائب «أنجاكم»، ولكن انظر إلى الجزء الخاص بالعذاب الذي كان يوقعه آل فرعون بني إسرائيل، إذ إنَّ فيه اختلافاً بين الآيتين يحدث تغييراً في الصورة: ﴿يَسْؤُمُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُدْحِجُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾، والآية الأخرى: ﴿يَسْؤُمُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُدْحِجُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾ إن الفارق بين العبارتين حرف واحد هو الواو التي جاءت في الآية الثانية قبل كلمة يذبحون، ولكن انظر كم أحدث الحرف الواحد من الاختلاف في الصورتين؟

في الصورة الأولى ينحصر العذاب في قتل الأولاد واستحياء النساء، وفي الثانية يصبح هذا الأمر واحداً فقط من ألوان العذاب التي تصب على بني إسرائيل وإن كان السياق يوحي من أبرزها وأشدها وأخبثها إذ أجمل: ﴿سُوءَ الْعَذَابِ﴾ وفصل قتل الأولاد واستحياء النساء، إنه تشابه يؤدي إلى التنويع الذي يشبه حال ثمار الجنة الموصوفة في القرآن.

٩- قصة نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ :

من أكثر الأمور تكراراً في القرآن قصص الأنبياء مع أقوالهم، وصور العذاب والنعيم في اليوم الآخر وهما من أكثر الموضوعات في القرآن وروداً، ولكن بشكل مختلف في كل مرة وذلك في ذاته لو أن من الإعجاز لا يرد بهذه الصورة في كلام البشر أصحاب القدرة القاصرة في البيان والتعبير، وهذا وصف لازم للمخلوق.

واليك هذا النموذج من تكرار قصة نبي الله نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ :

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ إِتِي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمِ أَلِيمٍ ﴿١٦﴾ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ

قَوْمِهِ مَا نَزَلْنَا إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَزَلْنَاكَ إِلَّا آيَاتٍ هُمْ أَرَادُوا بِادِّىَ الرَّأْيِ
 وَمَا نَزَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلِ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَذِبِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ يَقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ
 بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَانِئْتِي رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنزَلْنَاهُمْ مَكْمُومًا وَأَنْتُمْ لَهَا كَرِهُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَقَوْمِ
 لَا تَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَا لَآئِنَ أَجْرَىٰ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدٍ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّهُمْ مُّلتَقُوا رَبَّهُمْ
 وَلَنَكْفِيَنَّ أَرْكَكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَقَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُمُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾
 وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدِرِي
 أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا يَنْبُوحُ قَدْ
 جَدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدْلَنَا فَأِنَّا يَمَّا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيَكُمْ بِهِ
 اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ
 أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَىٰ إِجْرَامِي
 وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا يُشْجَرُونَ ﴿٣٥﴾ وَأَوْحَىٰ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ ءَامَنَ فَلَا
 نَبْتَيْسَ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَأَصْنَعُ الْفُلَكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحِّينَا وَلَا تَخْطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا
 إِنَّهُمْ مُّعْرِفُونَ ﴿٣٧﴾ وَيَصْنَعُ الْفُلَكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ
 تَسَخَرُوا مِنِّي فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ
 عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّثْقَلٌ ﴿٣٩﴾ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ
 وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ وَمَا ءَامَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾ وَقَالَ أَرْكَبُوا فِيهَا
 بِسْمِ اللَّهِ جَعْرَئِهَا وَمُرْسِنَهَا إِنْ رَبِّي لَعَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤١﴾ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَىٰ
 نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ أَرْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُن مَعَ الْكَافِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَأُوذِي إِلَىٰ
 جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ

فَكَانَ مِنَ الْمُعْرَقِينَ ﴿٤٣﴾ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَبَسْمَاءَ أَقْلَعِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿هَوْدَ: ٢٥-٤٤﴾.

وقال تعالى في سورة الأعراف: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَتَقَوَّمُوا عِبَادًا لِلَّهِ مَا لَكُمْ مِنِّي غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَتَقَوَّمُوا لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ أَوْعِبْتُمْ أَنَّ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَجْنَبَتْهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلِكِ وَاعْرِفْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَائِينَ ﴿الْأَعْرَافُ: ٥٩-٦٤﴾.

وقال تعالى في سورة الشعراء: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا نُنْفِقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١٠٨﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١١٠﴾ قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾ قَالَ وَمَا عَلَيَّ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنْ حَسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَا أَنَا بِطَارِدٍ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٥﴾ قَالُوا لَيْن لَّمْ تَنْتَه يَنْتُوحَ لِنُكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَوْمِي كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَافْتَحَ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجَّيْنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ فَأَجْنَبَتْهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلِكِ الْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَعْرَقْنَا بَعْدَ الْبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿الشُّعْرَاءُ: ١٠٥-١٢٢﴾، إنها قصة واحدة قصة نوح مع قومه وجدالهم وتكذيبهم له وإغراقهم في النهاية ونجاة المؤمنين، إن اختلاف الصورة من طرق السرد المختلفة هو في ذاته جمالٌ بلاغي؛ لأنه يعطي في كل مرة جواً مختلفاً للقصة في نفس القارئ

والسامع، فكأنها قصة جديدة مع أن الأشخاص هم هم والوقائع هي هي في النهاية، ولكن الأروع بعد ذلك أن تدرك مع الاختلاف سر الاختلاف.

إن القصص القرآني لا يراد لمجرد القصص وإنما يؤدي هدفاً دعويًا وتربويًا عظيمًا من خلال السرد المتناسق المؤثر، وإذا كانت الأهداف الدعوية كثيرة ومتعددة فإن القصص القرآني يأتي في صور متعددة في كل مرة متلائمة مع الهدف المقصود من إيراد القصة.

الهدف من إيراد القصة في سورة هود كما هو مذكور في سياق الصورة ثلاثة أمور : ﴿ ذَلِكْ مِنْ أَنْبَاءِ الْفُرَى نَقْصُهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ ﴾ (١٠٠) وَمَا ظَلَمْنَهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آءَالِهِتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَىءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْنِيْبٍ ﴾ (١٠١) وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْفُرَى وَهِيَ ظَلَمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ (١٠٢) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ تَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ ﴿ [هُودٌ: ١٠٠-١٠٣].

وقوله تعالى: ﴿ وَكَلَّا نَقْصُ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نَتْنِيْتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [هُودٌ: ١٢٠].

فهي إنذار للناس لكي يحذروا عذاب الآخرة ويتقوه، وهي تثبت لقلب الرسول ﷺ، وهي موعظة وذكرى للمؤمنين، وكان من المناسب لهذه الأهداف الثلاثة تطويل العرض والإكثار من ذكر التفاصيل فيما وقع بين كل رسول وقومه وكان ذلك مناسباً بصفة خاصة للهدف المتعلق بتثبيت قلب الرسول ﷺ وهو يلقي العنت من قومه من تكذيبهم وجدلهم، فهذا هو ذا رسول سابق من رسل الله قد لقي مثل هذا العنت وصبر عليه ثم نجاه الله وقضى على الذين كذبوه.

أما الهدف في سورة الأعراف - كما جاء في سياق السورة - فهو هذا البيان: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالصَّرَاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَعُونَ ﴾ (١٤) ثُمَّ

بَدَلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ ءَابَاءَنَا الضَّرَاءَ وَالسَّرَاءَ فَأَخَذْنَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٤-٩٥﴾ [الْإِنشَاءُ]، فالتركيز هنا هو على الأخذ المباغت وليس على

ما جرى من أحداث بين الرسول وقومه فلا يركز عليها في السياق.

أما في سورة الشعراء فهو في إيراد القصة كما هو مذكور في السورة أن الكفار يطالبون الرسول ﷺ بآية تجعلهم يصدقون بأنه رسول من عند الله، فجاء التركيز في القصة على الآية وهي إهلاك الظالمين وتنجية المؤمنين وليس على تفاصيل الأحداث كما كان الحال في سورة هود.

وهكذا نرى وفاء القصة في كل مرة بالهدف من إيرادها وتنوع الصورة في كل مرة بما يناسب سياق العرض.

١٠- قال الله تعالى عن نبيه موسى ﷺ في سورة النمل: ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِ إِنِّي آنستُ نارا سآتية منيها بخبر أو آتية منيها بيهاب قبس لعلكم تصطلون﴾ [النمل: ٧]، وقال في سورة طه في هذه القصة: ﴿لَعَلِّي آتية منيها بيهاب أو آتية منيها بيهاب﴾

[طه: ١٠]

وقال في موضع ثالث: ﴿لَعَلِّي آتية منيها بيهاب أو جذوة من النار لعلكم تصطلون﴾ [القصص: ٢٩]، وانظر ترى أنه سبحانه وتعالى قد تصرف في وجوه وأتى بذكر القصة على ضروب ليعلمهم عجزهم عن جميع طرق ذلك ليكون أبلغ في تعجيزهم وأظهر للحجة عليهم، وكل كلمة من هذه الكلمات وإن أنبأت عن قصة فهي بليغة بنفسها تامة في معناها^(١).

١١- قال تعالى: ﴿فَاتِيَرَعُونَ فقولاً إنا رسول رب العالمين﴾ [الشعراء: ١٦]، وقال تعالى: ﴿فَاتِيَاهُ فقولاً إنا رسولا ربك فأرسل معنا بني إسرائيل﴾ [طه: ٤٧]، إن تشية لفظة

رسول الله في آية طه وإفراها في آية الشعراء يرجع - والله أعلم بمراده - إلى اختلاف السياق في كل من السورتين عنه في الأخرى، فكل من الآيتين الكريمتين قد سبقت في سياقها بإعلان الخوف من بطش فرعون وطغيانه غير أن هذا الإعلان جاء في سورة طه على لسان الرسولين موسى وهارون عليهما السلام، ومن ثم جاءت لفظة رسول مثناة لبعث الطمأنينة والثقة في قلبيهما، واقتلاع جذور الخوف من نفسيهما معاً: ﴿قَالَ رَبَّنَا إِنَّا نَخَافُ أَنْ يُفْرِطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى﴾ (٤٥) ﴿قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ (٤٦) فَأَيُّاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ ﴿طه: ٤٥-٤٧﴾، أما في سورة الشعراء فقد ورد الإخبار عن الخوف من فرعون وآله على لسان موسى وحده ومن ثم كان إفراد في تلك السورة تهدئة لروعه وتطميناً لمخاوفه ﴿عَلَيْنَا السَّلَاطُ﴾: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ﴾ (١٢) وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَى هَرُونَ ﴿١٣﴾ وَهُمْ عَلَىٰ ذَنْبٍ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾ قَالَ كَلَّا فَادْهَبَا بِأَيْتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾ فَآتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾

[الشعراء: ١٢-١٦]

ونلفت النظر في هذا الصدد إلى أن تكرار بعض القصص في القرآن مع مجيء القصة في كل مرة بطريقة مختلفة ولون جديد وأسلوب فريد عجيب نوع عظيم من الإعجاز التكراري في هذا القرآن المجيد، ومن فوائد تكرار القصص في القرآن ما يلي:

- ١- بيان بلاغة القرآن في أعلى مراتبها.
- ٢- قوة الإعجاز في إيراد المعنى الواحد في صور متعددة مع عجز العرب عن الإتيان بصورة منها أبلغ في التحدي.
- ٣- تثبيت قلب النبي محمد ﷺ .
- ٤- الاهتمام بشأن القصة لتمكين عبرها في النفوس فما تكرر تقرر.
- ٥- التذكير والوعظ والاعتبار.

٦- استغلال المناسبات لإيراد الشاهد التاريخي عند المناسبة الداعية إلى ذكره مع إبراز ما يتصل بالمناسبة منه ومطابقة مقتضى الحال في كل مرة مع التصريف والتنوع في الأساليب لتكون العظة أكثر تأدية لوظيفتها.

٧- تعميم النفع.

٨- الإفهام^(١).

ثالثاً- بلاغة الالتفات (*):

ومعنى الالتفات تغيير وتحول غير متوقع في مسار التعبير كأن يكون الخطاب في الكلام للغائب ثم يتحول فجأة إلى المتكلم، وهذا كقول الله تعالى: ﴿فَقَضَّهِنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيْنَا السَّمَاءَ الذَّنْبِيَّ بِمَصْنُوحٍ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [فَصَّلَتْ: ١٢].

ومن أعجب ما اتفق في ذلك أن المتأخرين من ناظمي البديعيات كعز الدين الموصلي وابن حجة الحموي وغيرهما عدوا تمام الفضيحة في عملهم أن ينظموا البيت على النوع من أنواع البديع ثم يذكروا اسم النوع في البيت بالتورية، وهذا بعينه استخرجه الشهاب الخفاجي من القرآن في مسألة الالتفات وذلك في قوله تعالى: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ﴾ [هُود: ٨١]؛ لأن السياق يحتمل أن يكون: (ولا يلتفت منهم)، فعدل عن الغيبة إلى الخطاب^(٢).

ومن صور بلاغة الالتفات ما يلي:

١- من ذلك إفراد السمع وجمع الأبصار والقلوب في قوله تعالى: ﴿حَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشْوَةً وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [البقرة: ٧].

(١) «البرهان» للزركشي (٣/ ٢٠).

(*) «مستفاد من دراسات في علمي المعاني والبديع وإعجاز القرآن» للباقلاني والرافعي.

(٢) «إعجاز القرآن» للرافعي (٢٥٧-٢٥٨).

وقال العجالي: ﴿ وَاللَّهِ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بَطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [التَّحَاكُمُ: ٧٨]، وقال تعالى: ﴿ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ [يُونُسُ: ٣١]، إن أفراد السمع وجمع الأبصار في هذه الآيات لعله يشير -والله أعلم بمراده- إلى توحد وسيلة الإدراك في حاسة السمع وتعددتها في حاسة البصر، فلقد أثبت علما التشريح ووظائف الأعضاء أن مركز الحس السمعي في المخ يمدده عصب دماغي واحد هو ما يسمى «العصب الثامن» أما الحس البصري فإنه يرتكز على أربعة أعصاب تتصافر معًا في إحداثه وهي العصبان (الرابع والسادس) المسئولان معًا عن حركة العين في مجال الحقل البصري ثم «العصب الثالث» المسئول عن حركة العين في جزء من هذا الحقل، وعن التحكم في دخول الضوء العين وضبط الحدقة وشكل العدسة حسب نوع الإبصار، ثم أخيرًا «العصب الثاني» المسئول عن توصيل الصور الساقطة على الشبكية إلى مراكز الإبصار العليا في مؤخرة الدماغ، فهذا فيما نظن والله أعلم هو سر أفراد السمع وجمع الأبصار في سياقاتهما القرآنية التي لا تدور كما رأينا حول ما يسمعه الإنسان أو يبصره، بل على حقيقة إدراكه السمعي أو البصري ذاتها.

ولعل من المناسب هنا أن نبين لماذا أوثرت لفظة الختم مع السمع ولفظة الغشاوة مع الأبصار في آية البقرة السابقة مع أن كل من الكلمتين تؤدي معنى تعطل الحاسة، فما سر هذا الاختيار إذن؟

وللإجابة عن هذا التساؤل نشير إلى أن الإدراك البصري هو نتيجة مباشرة لانعكاس صور المرئيات على شبكية العين من خلال العدسة، فإذا كان هناك خلل بالعدسة أو حائل خارجي يحول دون ذلك الانعكاس توقف الإدراك البصري تمامًا، أما الإدراك السمعي فهو على العكس من ذلك إذ هو إدراك داخلي أي أنه ليس هناك

سبب خارجي يحول دونه، بل لقد أثبت علم الطب أن قفل الأذن الخارجية أو فقدانها ليس شرطاً للصمم وأن عظام الجمجمة وغيرها من الموصلات قد تنوب عن الأذن في نقل الموجات الصوتية إلى العصب السمعي لعل ذلك والله أعلم هو سر إثارة الختم مع السمع والغشاوة مع الأبصار في آية البقرة، ولعل مما يؤكد ذلك على البصر عن الدلالة على تعطل الحاستين في قوله عزَّ وجلَّ: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَرَهُمْ﴾ [مُحَمَّدٌ: ٢٣] إذ لو كان الصمم هو تعطل الأذن لقليل فأصمَّ آذانهم كما قيل وأعمى أبصارهم^(١).

وهناك ملاحظة ثالثة في هذا المجال وهي أن غالب الآيات التي اجتمع فيها السمع مع البصر قدم السمع على البصر حيث اجتمع السمع مع البصر في تسعة عشر موضعاً في القرآن قدم السمع في أربعة عشر موضعاً وآخر في خمس، فلم؟
الجواب من وجوه:

- ١- أن السمع خلق قبل البصر في مرحلة تكوين أعضاء الجنين، ويشهد بذلك الأطباء وعلماء الأجنة.
- ٢- أن السمع أشرف وأوسع مجالاً من البصر؛ لأن به تثبت النبوات وأخبار الله تعالى وأوامره ونواهيه بخلاف البصر فهو قاصر عن السمع^(٢).
- ٣- ومن مواطن الالتفات من المفرد إلى الجمع قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا﴾ (٨١) ﴿كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ [تَبَارَكٌ: ٨١-٨٢]، في الآية الثانية جاء اسم يكون العائد على الآلهة ضمير جمع، ثم جاء الخبر عنه مفرداً «ضدّاً» عدولاً عن أضداداً التي يقتضيها ظاهر السياق وهو عدول

(١) «دراسات في علمي المعاني والبديع» (٨٣-٨٤).

(٢) «الموسوعة الذهبية» (٥٥٨-٥٥٩).

يحقق غايتين الأولى: توازي فاصلة الآية الكريمة مع فواصل الآيات السابقة عليها واللاحقة لها في السورة «مداً- فرداً- عزاً- أزا- ضدًا».

والثانية هي الدلالة على توحد موقف الآلهة يوم القيامة معادة هؤلاء الكفار الذين عبدوهم من دون الخالق أو أشركوهم في عبادته عزَّ وجلَّ فتوحيد الضد- كما ذكر المفسرون- لتوحد المعنى الذي تدور عليه مضادة هؤلاء الآلهة للكفار إذ إنهم يتفقون على هذه المضادة فيكونون كالشيء الواحد.

٤- قَالَ اللَّهُ تَجَالَى: ﴿يَحْفَظُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيَرْضَوْكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ٦٢]، كان من المتوقع أن يقال يرضوهما وتوجيه ذلك عند البلاغيين والمفسرين أقوال لعل أرجحها قول من قال إنه يعود على الله ورسوله وإنما أفرد الضمير لتوحد الرضاهين وإشعاراً بأن إرضاء صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو في الوقت ذاته إرضاء للخالق عزَّ وجلَّ، إذ إن في ذلك دعم لموقفه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وسلوان له فيما تحمله من أذى هؤلاء المنافقين فشان الإرضاء في ذلك شأن الطاعة التي وحدها الله عزَّ وجلَّ في قوله: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠].

٥- قال الله تعالى في شأن المنافقين: ﴿وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ [النور: ٤٨]، وقال سبحانه بعد ذلك بآيتين: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٥١]. تأمل تجد أن الفعل يحكم أسند إلى ضمير الإفراد المستتر «هو» لا إلى ضمير الثنية «ليحكما» كما يقتضي ظاهر السياق وفي ذلك -والله أعلم- دلالة على توحد الحكم وإشعاراً بأن ما ينطق به الرسول هو بعينه حكم الله، وأن هذا الذي يدعي الناس إلى الاحتكام إليه فيعرض عنه المنافقون ويدعن له المؤمنون إنما هو منهج واحد شرعه الحكيم الخبير وينفذه ويحكم بمقتضاه رسوله الأمين صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

٦- قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ

فَتَشْقَى﴾ [طه: ١١٧].

كان ظاهر السياق أن يكون فتشقياً لكن عدل إلى فتشقى، فلماذا كان هذا العدول؟ لعل أوجه الأقوال في ذلك أن المراد بالشقاء هنا التعب في طلب القوت وذلك على الرجل دون المرأة ذلك لأن الأكل أو القوت كان بمثابة المحور الأساسي في قصة آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ فهو يمثل إحدى النعم التي امتن الله بها على آدم بتهيئتها له في الجنة قبل هبوطهما إلى الأرض، كما قال تعالى: ﴿فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى﴾ [طه: ١١٨-١١٩]، وهو من جهة أخرى مدار الأمر والنهي في تلك القصة: ﴿وَكَلَّا مِنْهَا رَعْدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ٣٥]، وهو من جهة ثالثة سبب حرمان آدم وزوجه من الجنة: ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتَ لَهُمَا سَوْءَ تَهُمَا﴾ [طه: ١٢١]، ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ [البقرة: ٣٦]، فكان هذه الأكلة كانت بمثابة الحد الفاصل بين تنعمهما معاً بلذائذ الطعام في الجنة وشقاء آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ وحده في سبيل الكدح من أجله بعد الهبوط منها.

وجدير بالذكر هنا قول ابن القيم في قول الله تعالى: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى﴾ (١١٨) وَأَنْتَ لَا تَطْمَؤُا فِيهَا وَلَا تَضْحَى﴾ [طه: ١١٨-١١٩]، يقول: تأمل كيف قابل الجوع بالعري، والظماً بالضحى، والواقف مع القلب ربما يخيّل إليه أن الجوع يقابل بالظماً والعري بالضحى، والداخل إلى بلد الفقه عن الله يرى هذا الكلام في أعلى الفصاحة والجلالة؛ لأن الجوع ألم الباطن والعري ألم الظاهر، فهما متناسبان في المعنى، وكذلك الظماً مع الضحى؛ لأن الظماً موجب لحرارة الباطن، والضحى موجب لحرارة الظاهر فاقتضت الآية نفي جميع الآفات ظاهراً وباطناً^(١).

(١) «بدائع الفوائد» (٣/ ٣٣٠)، «التفسير القيم» [٢٩٤].

٧- قَالَ الْعَجَلِيُّ: ﴿وَأَنَّ طَائِفَانٍ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَقْتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا﴾ [الْحَجَرَاتُ: ٩].

في هذه الآية تحول عن التثنية إلى الجمع في ﴿طَائِفَانٍ - أَقْتَلُوا﴾ ، ثم تحول إلى التثنية مرة أخرى ﴿فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا﴾ ، وفي هذا- والله أعلم- إبراز للبون الشاسع بين داعي الصلح ودواعي الاقتتال أي بين توحد الكلمة -في كل من الطائفتين- في حال الصلح وتشتت الآراء وتطير شرر النفوس وانقسام الصف الواحد -في كل من الطائفتين- إلى صفوف في حال الاقتتال قال الرازي: عند الاقتتال تكون الفتنة قائمة وكل أحد برأسه يكون فاعلاً فعلاً فقال اقتتلوا وعند العود إلى الصلح تتفق كلمة كل طائفة وإلا لم يتحقق الصلح فقال بينهما لكون الطائفتين حينئذٍ كنفسين^(١)، قلت: ولعل ذلك يعني أن الاقتتال يكون بين الأفراد والصلح يكون بين الطائفتين كالجسدين المنفصلين، والله تعالى أعلم.

٧- قَالَ الْعَجَلِيُّ: ﴿وَأَنَا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾

[الْحِجْنَ: ١٠]، تجد الفعل مبني للمجهول مع إرادة الشر وللمعلوم مع إرادة الخير، وفي هذا إشعاراً بأن هؤلاء الجن الذين خالطت بشاشة الإيمان قلوبهم قد عرفت ألسنتهم عن ذكر الخالق عزَّ وجلَّ في جانب إرادة الشر، ولقد أحسنوا الأدب في ذكر إرادة الشر محذوفة الفاعل، وإبرازهم لاسمه عزَّ وجلَّ عند إرادة الخير والشر فجمعوا بين العقيدة الصحيحة والآداب المليحة.

رابعاً- استعمال اللفظ الواحد لمعانٍ مختلفة:

من وجوه بلاغة القرآن أن يستعمل لفظ واحد لمعانٍ متعددة في سياقات مختلفة، وهذه أدلة توضح ذلك وتبينه وتوقفك على جانب رائع وعلم نافع من بلاغة القرآن العظيمة^(٢).

(١) «التفسير الكبير» للفخر الرازي (١٢٧/٢٨-١٢٨).

(٢) «مستفاد من تأويل مشكل القرآن» لابن قتيبة، ط: دار الكتب العلمية.

أصل قضى حتم كقوله عز وجل: ﴿فِيْمَسِكُ أَلْيَ قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ﴾ [الزمر: ٤٢]،
أي حتمه عليها.

ثم يصير الحتم بمعانٍ كقوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ [الأنعام: ٢٣].
أي أمر.

وكقوله تعالى: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ﴾ [الأنعام: ٤] أي أعلمناهم،
وقوله تعالى: ﴿فَقَضَيْنَهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ﴾ [فصلت: ١٢] أي صنعهن وخلقهن، وقوله:
﴿فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ﴾ [طه: ٧٢] أي فاصنع ما أنت صانع، ومثله قوله: ﴿فَأَجْمِعُوا
أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّْ وَلَا تُنظِرُونِ﴾ [يونس: ٧١]
أي اعلّموا ما أنتم عاملون ولا تنظرون، وهذه كلها فروع ترجع إلى أصل واحد.

٢ - الأمة:

أصل الأمة الصنف من الناس والجماعة كقوله تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ أي
صنفًا واحدًا في الضلال: ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّنَ﴾ [البقرة: ٢١٣]، وكقوله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ
دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَيْرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَّمٌ أَمْثَلُكُمْ﴾ [الأنعام: ٣٨] أي أصناف.

ويستعمل لفظ الأمة بمعنى الحين والمدة من الزمن كقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِي نَجَا
مِنْهَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ [يوسف: ٤٥]^(١)، وكقوله تعالى: ﴿وَلَيْنَ أَخْرَجْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِلَىٰ أُمَّةٍ
مَّعْدُودَةٍ﴾ [هود: ٨] أي سنين معدودة.

والأمة تعني الإمام والرباني كقول الله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ﴾
[الحج: ١٢٠] أي إمامًا يقتدى به الناس؛ لأنه ومن اتبعه أمة فسمي أمة؛ لأنه سبب
الاجتماع.

(١) أي بعد فترة ومدة.

وقد يجوز أن يكون سمي أمة؛ لأنه صلوات الله وسلامه عليه قد اجتمع فيه من صفات الخير ما يكون مثله في أمة.

ولفظ الأمة يستعمل في القرآن بمعنى الدين والملة كما قال الله جَلَّ جلاله:
﴿ بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ ﴾ [الزُحُف: ٢٢] أي على دين.

والأصل أن لفظ أمة يستعمل للقوم يجتمعون على دين واحد، ولهذا قيل للمسلمين أمة محمد ﷺ؛ لأنهم على أمر واحد، قال تعالى: ﴿ وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ [المؤمنون: ٥٢].

٣- العهد:

الأمان عهد كما قال تعالى: ﴿ فَأَتَمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ﴾ [التوبة: ٤]، واليمين عهد، كما قال تعالى: ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ ﴾ [الأنفال: ٩١]، وكذلك الوصية عهد قال تعالى: ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَبْنَىٰءَ آدَمَ ﴾ [يونس: ٦٠]، والعهد يعني الميثاق ومنه قوله تعالى لإبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴾ [البقرة: ١٢٤] أي لا ينال ما وعدتك من الإمامة الظالمين من ذريتك والوعد من الله ميثاق.

٤- الضلال:

الضلال هو الحيرة والانحراف عن الحق يقال ضل عن الحق كما يقال ضل عن الطريق، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ﴾ [الضحى: ٧].

وكذلك الضلال يستعمل لفظه في القرآن بمعنى النسيان، كما قال تعالى: ﴿ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَآمْرًا تَكَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَىٰ ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

وتستعمل لفظة الضلال في لغة القرآن بمعنى الهلكة والبطلان كقوله جل جلاله:
﴿ وَقَالُوا أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَأَنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ [التجوة: ١٠] أي لحقنا بالتراب يقال
أضل القوم ميتهم أي قبروه، فالضلال في الأرض هو الغياب فيها.

٥- الإمام:

تطلق كلمة الإمام على من يؤتم به كما قال الله عن خليله إبراهيم: ﴿ إِنِّي جَاعِلُكَ
لِلنَّاسِ إِمَامًا ﴾ [البقرة: ١٢٤]^(١)، أي يؤتم بك ويُقتدى بستك.

كذلك تطلق على الكتاب الذي جمعت فيه الأعمال وأحصيت فيه كما قال تعالى:
﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾ [يس: ١٢]، يعني كتاباً أو اللوح المحفوظ، وقال
تعالى: ﴿ يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمْئِهِمْ ﴾ [النبأ: ٧١]، أي بكتابهم الذي جمعت فيه
أعمالهم في الدنيا.

ولفظة إمام تطلق على الطريق؛ لأن المسافر يأتّم به ويستدل له على وجهته في سفره،
قال الله تعالى: ﴿ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾ [الحجر: ٧٩] أي بطريق واضح.

٦- الرجز:

تطلق هذه الكلمة على العذاب كما قال الله تعالى حكاية عن قوم فرعون: ﴿ لَئِن
كَشَفْتَنَا عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ ﴾ [الأعراف: ١٣٤] أي العذاب.
ويطلق الرجز على كيد الشيطان؛ لأنه سبب العذاب إذا استجاب المرء له ووقع فيه
واستمر عليه كما قال تعالى: ﴿ وَيَذْهَبَ عَنْكُمُ الرِّجْزُ الشَّيْطَانِ ﴾ [الأنفال: ١١].

(١) قلت: وفي هذه الآية وجه من الإعجاز الإخباري حيث بقى إبراهيم إماماً للناس حتى يومنا هذا لذلك كذب الله زعم
اليهود والنصارى بنسبتهم إليه فقال: ﴿ مَا كَانَ إِبرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَتْ حَنِيفًا مُسْلِمًا ﴾ [الأنفال: ٦٧].

يطلق لفظ الفتنة على الاختبار يقال فتننت الذهب في النار، أي أدخلته إليها لتعلم جودته من رداءته كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ [الجن: ٣] أي اختبرناهم.

ومنه قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣] أي جوابهم لأنهم حين سئلوا اختبر ما عندهم بالسؤال فلم يكن عن ذلك الاختبار إلا هذا القول.

ويطلق لفظ الفتنة على التعذيب كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَنَوْا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [البرق: ١٠] أي عذبوهم بالنار، وقال عز وجل: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ﴾ [الدَّارِئَاتِ: ١٣] أي يعذبون، وقال عز وجل: ﴿فَإِذَا أُودِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ﴾ [الجن: ١٠] أي جعل عذاب الناس وأذاهم كعذاب الله.

ويطلق لفظ الفتنة على الصد والاستزلال قال الله عز وجل: ﴿وَأَحْذَرَهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [المائدة: ٤٩] أي يصدوك ويستذلوك، وقال تعالى: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ [الأنعام: ٧٣].

ويطلق لفظ الفتنة على الإشراف والكفر والإثم كقوله تعالى: ﴿وَقَنِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ [البقرة: ١٩٣] أي شرك، وقال تعالى: ﴿أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا﴾ [التوبة: ٤٩] أي في الإثم، وقال تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾ [النور: ٦٣] أي كفر وإثم.

ويطلق لفظ الفتنة ويراد به العبرة كقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [يونس: ٨٥]، وفي موضع آخر: ﴿لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [الأنعام: ٥] أي يعتبرون أمرهم بأمرنا، فإذا رأونا في ضرر وبلاء ورأوا أنفسهم في غبطة ورخاء ظنوا أنهم على حق ونحن على باطل.

لفظة الفرح تطلق في القرآن ويراد بها المسرة كما قال تعالى: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي
الْفَلَکِ وَجَرَّيْنَهُمَا رِيحٌ طَيِّبَةٌ وَفَرِحُوا بِهَا ﴾ [يُونُسُ: ٢٢] أي سرّوا.

وتطلق لفظة الفرح ويراد بها الرضى لأنه يكون عن مسرة، قال تعالى: ﴿ كُلُّ
حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ [الْمُنْفِقُونَ: ٥٣] أي رضوان، وقال تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ
بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ ﴾ [تَافُور: ٨٣] أي رضوا.

والفرح يطلق على البطر والأشر؛ لأن ذلك عن إفراط السرور، قال الله تعالى:
﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴾ [الْقَصَصُ: ٧٦]، وقال تعالى: ﴿ ذَلِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ
بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ [تَافُور: ٥٧] وقد تبدل الحاء في هذا المعنى هاءً فيقال فره أي فرح واطر، قال
تعالى: ﴿ وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَرِهِينَ ﴾ [الشُّعْرَاءُ: ١٤٩] أي أشرين بطرين والهاء
تبدل من الحاء لقرب مخرجهما، تقول مدحته ومدهته بمعنى واحد.

٩- المثل:

تأتي هذه اللفظة في القرآن بمعنى الشبه كما قال تعالى: ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا
مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا ﴾ [العنكبوت: ٤١] أي شبه
الذين كفروا وشبه العنكبوت، وتأتي كلمة المثل بمعنى العبرة كقوله تعالى: ﴿ فَجَعَلْنَاهُمْ
سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ ﴾ [الزُّحُف: ٥٦] أي عبرة لمن بعدهم، وقوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَاهُ
مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ [الزُّحُف: ٥٩] أي عبرة.

وتأتي كلمة مثل بمعنى الصورة والصفة كقوله تعالى: ﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُؤْمِنُونَ
فِيهَا ﴾ [مُحَمَّدًا: ١٥] أي صفة الجنة.

١٠- الزوج:

تأتي بمعنى الصنف كما قال تعالى: ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا
تُنْبِتُ الْأَرْضُ ﴾ [يَس: ٣٦]، يعني الأصناف، وقال تعالى: ﴿ تَمَنِّيَةَ أَزْوَاجٍ مِّنَ الضَّأْنِ

أَشْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعَزِ أَشْنَيْنِ ﴿ [الأنجاء: ١٤٣] أي ثمانية أصناف، وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَنَّا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿ [الشجاء: ٧] أي من كل صنف حسن وتأتي الزوج بمعنى القرين، كما قال تعالى: ﴿أَحْشَرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ ﴿ [الصفافات: ٢٢] أي قرناءهم، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴿ [التكوير: ٧] أي قرنت النفوس بعضها ببعض.

١١- النسيان:

تأتي كلمة النسيان ويراد بها ضد الحفظ كما قال الله تعالى: ﴿قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ ﴿ [الكهف: ٦٣]، وقال تعالى: ﴿قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ ﴿ [الكهف: ٧٣].

وتأتي بمعنى الترك كقوله تعالى: ﴿فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا ﴿ أي بما تركتم الإيمان بقاء هذا اليوم ﴿إِنَّا نَسِينَكُمُ ﴿ [السيارة: ١٤] أي تركناكم، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ﴿ [البقرة: ٢٣٧] أي لا تتركوا ذلك.

١٢- السعي:

تأتي كلمة السعي ويراد بها الإسراع في المشي كما قال تعالى: ﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَى ﴿ [الفضل: ٢٠] أي يسرع في مشية وهو العدو أيضًا، ويأتي السعي بمعنى المشي كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعَى ﴿ [الصفافات: ١٠٢] يعني المشي، ويقال المعاونة له على أمره.

ويأتي السعي بمعنى العمل كما قال تعالى: ﴿فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا ﴿ [الإنشراء: ١٩]، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا ﴿ [الإنشراء: ١٩]، وقال تعالى: ﴿إِنْ سَعَيْكُمْ لَشَقَى ﴿ [الليل: ٤] أي: عملكم، لشتى: أي مختلف.

تأتي هذه الكلمة ويراد بها الشيء الكثير، كما قال تعالى: ﴿جَزَاءٌ مِّن رَّبِّكَ عَطَاءٌ حِسَابًا﴾ [النَّبَأ: ٣٦] أي كثيرًا يقال أحسبتُ فلانًا أي أعطيته ما يحسبه أي يكفيه.

وتأتي بمعنى الجزاء كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ﴾ [الْعَاقِبَةُ: ٢٦] أي جزاءهم، وقال تعالى: ﴿إِنَّ حِسَابَهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي لَوَ تَشْعُرُونَ﴾ [الشُّعْرَاء: ١١٣]؛ لأن الجزاء بالحساب.

وتأتي الحساب بمعنى المحاسبة كما قال تعالى: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾

[الْإِنشِقَاق: ٨]

ترد كلمة الأمر في القرآن بمعنى القضاء كما قال تعالى: ﴿يُدِيرُ الْأَمْرَ مِن سَمَاءِ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ﴾ [الْبَقَرَةُ: ٥]، أي يقضي القضاء، وتأتي ويراد بها الدين كما قال تعالى: ﴿فَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلٌّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [الْمُؤْتَفِكُونَ: ٥٣] أمرهم أي دينهم، وقال تعالى: ﴿حَتَّىٰ جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ﴾ [التَّوْبَةُ: ٤٨].

وتأتي كلمة الأمر بمعنى القول كما قال تعالى: ﴿إِذْ يَتَنَزَّعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ﴾ [الكَهْف: ٢١] يعني قولهم.

وتأتي لفظة الأمر ويراد بها العذاب كما قال الملك الوهاب في محكم الكتاب: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ﴾ [إِبْرَاهِيم: ٢٢] أي وجب العذاب، وقال تعالى: ﴿وَعِصَى الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ﴾.

وتأتي كلمة الأمر بمعنى القيامة، قال تعالى: ﴿أَنقَ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [الْحَجَّال: ١]، وقال تعالى: ﴿وَتَرَبَّصُّمْ وَأَرْبَبْتُمْ وَعَرَّتْكُمْ الْأَمَانِي حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ﴾ [الْحَدِيد: ١٤] أي القيامة أو الموت.

ويطلق الأمر على الوحي قال تعالى: ﴿يُنزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ﴾ [الطَّلَاق: ١٢].

وتأتي كلمة الأمر بمعنى الذنب قال تعالى: ﴿فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا﴾ [الطلاق: ٩].
ويكنى عن كل شيءٍ بالأمر؛ لأن كل شيء يكون فإنما يكون بأمر الله؛ لذلك
سميت الأشياء أموراً؛ لأن الأمر سببها، قال تعالى: ﴿أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾
[الشورى: ٥٣].

خامساً - بلاغة الكلمات والألفاظ القرآنية: (١)

هذه أمثلة مختارة ونماذج منتقاة تشير إلى البلاغة المعجزة والدقة الحكيمة في استعمال
الكلمات ووضع كل كلمة في موضعها اللائق بها والمناسب لها بحيث لو ترعت اللفظة
من مكاناً ووضع غيرها لاختل المعنى وفسد التعبير، ومن شواهد ذلك ما يلي:

١- كلمة «الضر-ضره-ضُرٌّ» .

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا
عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زِينٌ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾
[يونس: ١٢]

جاءت كلمة الضر في أول الآية معرفة بالألف واللام، ثم جاءت مضافة تبرز
المفارقة بين حال الإنسان وقت الشدة وحاله بعد زوالها، فبينما تجده في الحال الأول
متوجهاً إلى خالقه عزَّ وجلَّ ملحاً في دعائه متوسلاً إليه في كل حال من أحواله-لجنبه
أو قاعداً أو قائماً- نجده في الحال الثانية سابقاً في غمار الغفلة أو الجحود، وجاء التحول
عن تعريف الضر إلى تنكيهه في الآية مؤدياً دوره في تجسيد المفارقة إذ في تعريفه حال مسَّه
للإنسان إشعار بأنه- وإن هان أمره وقل خطره- يستقطب وعيه ويستحوذ على تفكيره
ويصبح شغله الشاغل، أما تنكيهه في الحال الأخرى ففيه إيحاء بأنه ما إن يكشف الله عزَّ

(١) «مستفاد من الموسوعة الذهبية»، و«دراسات في علمي المعاني والبديع»، و«محاضرات في علم المعاني» لسعد
عبد العظيم محمد. كلية دار العلوم بالقاهرة، و«كتاب القرآن والترادف اللغوي» لسيد خضر، ط: دار بلال بكفر
الشيخ.

وجل ضر الإنسان حتى يتوارى ذلك الضر بعيداً عن محور اهتمامه وبؤرة شعوره ويصبح في هامش ذاكرته شيئاً أقرب إلى المجهول.

٢- قوله تعالى: ﴿ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ ﴾ [النجم: ٢٢].

هذه اللفظة لا يسد غيرها مسدّها فإن هذه اللفظة إنما أوثرت كي تناسب بغرابتها غرابة تلك القسمة الظالمة الجائرة التي تصفها، فمعلومة أن هؤلاء الذين ضلوا طريق التوحيد واتخذوا من اللات والعزى ومناة آلهة كانوا يؤثرون الذكور ويحقوقون الإناث ومن ثم كان من الغريب حقاً أنهم- وقد ميزوا بين الجنسين على هذا النحو- ألا يتصوروا تلك الآلهة المزعومة التي أشركوها مع الله في العبادة إلا إناثاً وألا يسموها إلا تسمية الإناث.

٣- «السبيل-السبيل»:

قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلًا ﴾ [الاحزاب: ٦٧]، وفي نفس السورة يقول الله تعالى: ﴿ جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّاتِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكَ كُمُ قَوْلِكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ﴾ [الاحزاب: ٤].

هذه الآية الرابعة من سورة الأحزاب بدون ذكر الألف مع إمكان إلحاقها بها لاسيما وهي بين آيات منتهية بالألف: «وكيلاً» هذه قبلها وبعدها آية منتهية «رحيماً»، وهذا يدل دلالة قاطعة على أن التناسب الشكلي بين الفواصل ليس غاية تقصد لذاتها في البيان القرآني.

وفاعل الهداية في الآية الرابعة من سورة الأحزاب هو الضمير العائد على الخالق سبحانه، وفاعل الإضلال في الآية السابعة والستين هو الضمير العائد على السادة والكبراء الذين أوردوا أتباعهم موارد التهكلة، ولعلنا بذلك ندرك التناسب المعنوي بين كل من الفاصلتين، فالآية الأولى فيها تناسب بين قصر الفاصلة وطريق

الهداية القاصد، والآية الثانية فيها تناسب بين طول الفاصلة وطريق الضلال الملتوي الذي ينحرف بسالكيه بعيداً عن السبيل (طريق الحق) ويجر أهله إلى التخبط في بيدا الكفر ومتاهات العمى، هذا فضلاً عن مناسبة هذه الفاصلة الأخيرة «السيلا» لموقف الندم الذي وردت في سياق تصويره، حيث تجسد بامتداد بنيتها الصوتية بحرف المد الذي تواءمت به مع نسق الفواصل آهات الحسرة الوالهة التي تكتظ بها حناجر هؤلاء النادمين يوم القيامة.

ملاحظة مهمة:

تبدو هذه العلاقة واضحة كذلك في زيادة حرف المد في لفظة الظنونا في فاصلة الآية العاشرة من السورة ذاتها: ﴿ إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَنَظُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَ ﴾ [الْحَجَرَاتِ: ١٠] إذ في زيادة هذا الحرف -والله أعلم- فضلاً عن مراعاة نسق الفواصل بزيادته -إيحاءً بأن هذه الظنون قد بلغت من حيث كثرتها وقوة سيطرتها في نفوس المؤمنين آماداً بعيدة، وبذلك تكون فاصلة الآية قد أدت دورها في تجسيد هول هذا الموقف العصيب الذي زاغت فيه أبصار هؤلاء المؤمنين وبلغت قلوبهم الحناجر.

٤- المطر والغيث:

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَأَنْظَرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴾ [الْحَجَرَاتِ: ٨٤]، وقال تعالى: ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَابًا مِّنْ سِجِّيلٍ ﴾ [الْحَجَرَاتِ: ٧٤]، وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أَمْطَرْنَا مَطَرًا سَوَاءً ﴾ [الْقُرْآنِ: ٤٠].

المطر والغيث كلاهما اسم لنزول المطر من السحاب لفظهما مختلف ومعناهما واحد، وهذا هو الوارد في معاجم اللغة، المطر هو الغيث والغيث هو المطر، أما في لغة القرآن فالأمر مختلف، فالمطر لم يستعمل في القرآن إلا في مقام العذاب والانتقام من المعرضين عن رسالات الله كما تقدم في الآيات السابق ذكرها.

أما في سياق الحديث عن المؤمنين فيرد في مقام الأذى والابتلاء مثل قوله تعالى: ﴿إِنْ كَانَ يَكُمُ أَدَىٰ مِنْ مَّطَرٍ﴾ [النساء: ١٠٢].

وأما الغيث فقد استعمل في مقام النعم والفضل والغوث والنجدة أي في مقامات الخير دائماً ومن ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنزِلُ الْغَيْثَ﴾ [لقمان: ٣٤]، وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا﴾ [الشورى: ٢٨]، وقوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاهُهُ﴾ [الحديد: ٢٠].

٥- الميِّت والميِّت:

قَالَ تَجَالِي: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠].

وَقَالَ تَجَالِي: ﴿أَوْ مَن كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ﴾ [الأنعام: ١٢٢].

تستعمل كلمة ميِّت بتشديد الياء في القرآن للدلالة على شيئين ما كان حياً وفيه روح وسموت يوماً كما في الآية الأولى، فقد أطلقت الكلمة على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه وهم لا زالوا أحياء يستمعون القرآن، والأمر الثاني تستعمل كلمة ميِّت للدلالة على ما ليس فيه روح كالأرض كما في قوله تعالى: ﴿فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [فاطر: ٩١].

ووردت كلمة ميِّت بسكون الياء للدلالة على ما مات فعلاً وفارقت روحه بدنه كما قال تعالى: ﴿أَيُّحِبُّ أَحَدَكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيِّتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ [الحجرات: ١٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالْدَّمَ وَلَحْمَ الْخِزْيِرِ﴾ [النحل: ١١٥]، وكما قال تعالى: ﴿وَأَيُّهُ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيِّتَةُ أَحْيَيْنَاهَا﴾ [يونس: ٣٣].

٦- عرف وعلم:

في اللغة لا تكاد تحسُّ بالفرق بين الكلمتين لتقارب المعنى المراد منهما من حيث الظاهر، ولكن ذكرت بعض الفروق اللغوية الدقيقة بين الكلمتين منها:

١- العلم يتناول كليات العلم وجزئياته، أما المعرفة فلا تتناول إلا الجزئيات وحدها.

٢- العلم لا يشترط فيه أن يسبقه جهل أما المعرفة فیسبقها جهل .

٣- العلم لا يكون عن تفكر وتدبر، والمعرفة لا بد فيها من التفكير والتدبر .

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا

شَاءَ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وفي هاتين الآيتين كان إسنادهما إلى الخالق .

وتأتي كلمة علم مسندة إلى المخلوق كقوله تعالى: ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ

مَشْرَبَهُمْ﴾ [البقرة: ٦٠]،

ولم تأت كلمة علام وكلمة عليم في القرآن إلا وصفًا لله جلّ جلاله، ولم تطلق

على المخلوق قط قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ٩٥]، وقال: ﴿إِنَّكَ أَنْتَ

عَلَّمُ الْغُيُوبِ﴾ [المائدة: ١١٦].

وأما كلمة عرف فقد وردت في القرآن وصفًا للمخلوق، ولم ترد وصفًا للخالق

قط .

قَالَ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ، كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾ [البقرة: ١٤٦]،

وقال: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا﴾ [النحل: ٨٣].

٧- القاسطون والمقسطون:

قسط فلان قسطًا: جار وعدل عن الحق فهو قاسط «وأقسط»: عدل أقسط بينهم

وإليهم: عدل في القسمة والحكم فهو مقسط^(١) .

قال تعالى عن الجن: ﴿وَأَنَا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ﴾ [الجن: ١٤]، وقال

تعالى: ﴿وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ [الجن: ١٥]، والمقسطون أي العادلون كما

قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الحجرات: ٩].

(١) «المعجم الوجيز»، ص [٥٠١].

الحر ضد البرد والحور رِيحٌ حارة بالليل كما أن السَّموم رِيحٌ حارة بالنهار، ويدل على كونها رِيحًا حارة بالليل قول الله تعالى: ﴿وَلَا الظِّلُّ وَلَا الحُرُّورُ﴾ [قَطَاةٌ: ٢١] أي ولا المكان الذي حجبت عنه الشمس وكان هادئًا لا رِيح فيه ولا الذي حجبت عنه الشمس (لغيابها بالليل) وكانت تهب عليه رِيحٌ حارة.

أما الحر فهو شدة الحرارة، ومنه قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَا نَنْفِرُوا فِي الحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾ [التَّوْبَةِ: ٨١]، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُم سَرِيَلًا تَقِيَكُمُ الحَرَ وَسَرِيَلًا تَقِيَكُم بِأَسَكُم﴾ [الحَجَّاتِ: ٨١]، وهذه هي المرات التي ذكرت فيها الكلمتان حيث وردت كلمة الحر في القرآن ثلاث مرات ولم ترد الحور في القرآن إلا مرة واحدة.

٩- سفها وسفاهة:

السفه من الفعل المكسور العين (سَفِه) بينما السفاهة من الفعل المضموم العين (سَفِه)، والفرق بين المصدرين أن «السفاهة» مصدر يدل على الثبات والرسوخ، أما السفه فمصدرٌ يدلُّ على التغيُّر، فالسفاهة صفة دائمة ملازمة لصاحبها أبدًا، أما السفه فقد يكون في بعض المواطن التي قد يرجع عنها صاحبها.

قَالَ العَجَلِي: ﴿قَالَ المَلَأُ الذِّبِكُ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَنَّكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنُظُنُّكَ مِنَ الكَذِبِ﴾ (٦٦) قَالَ يَقَوْمٍ لَيْسَ بِ سَفَاهَةٍ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ العَالَمِينَ ﴿ [الإِخْرَاقِ: ٦٦-٦٧]، ووردت كلمة سفها مرة واحدة وذلك في قوله تعالى: ﴿قَدْ حَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللهُ افْتِرَاءً عَلَى اللهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ [الأنجاء: ١٤٠].

١٠- سُخْرِيًّا وَسُخْرِيًّا:

السُّخْرَى بكسر السين هو السخرية والاستهزاء، والسُّخْرَى بضم السين هو التسخير والاستعمال في الخدمة، تأمل الفرق بين المعنيين في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا ءَأَمْنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَأَرْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴿١١٠﴾ فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سُخْرِيًّا حَتَّىٰ أَنسَوَكُم ذِكْرِي وَكُنتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١١﴾ إِنِّي جَزَيْتَهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَآئِزُونَ ﴿١١٢﴾﴾

[الزُّنُورُ: ١٠٩-١١١]

وقوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ قَسَمًا بَيْنَهُمْ مَّعِيشَتِهِمْ فِي الْحَيَوةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحِمْتَ رَيْكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [الزُّنُورُ: ٣٢].

١١- حَذَرٌ وَحَذَرٌ:

قَالَ الْعَجَلِيُّ: ﴿يَجْعَلُونَ أَصْدِعَهُمْ فِي ءَاذَانِهِمْ مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ ﴿١٩﴾﴾ [البَقَرَةُ: ١٩]، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ ﴿٢٤٣﴾﴾ [البَقَرَةُ: ٢٤٣].

وَقَالَ الْعَجَلِيُّ: ﴿يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا خُذُوا حَذَرَكُمْ فَانْفِرُوا ثَبَاتٍ أَوْ انْفِرُوا جَمِيعًا ﴿٧١﴾﴾ [النِّسَاءُ: ٧١]، وقال تعالى: ﴿وَلَتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حَذَرَهُمْ وَأَسْلِحَتْهُمْ ﴿١٠٢﴾﴾ [النِّسَاءُ: ١٠٢]، وردت كلمة «حذر» بالفتح في القرآن مرتين، بينما وردت كلمة «حذر» بالكسر ثلاث مرات وأضيفت كلمة «حذر» بالفتح في المرتين إلى اسم ظاهر وهو الموت «حذر الموت».

بينما جاءت كلمة «حذر» بكسر الحاء مسبوقة بكلمة «خذوا» أو «ليأخذوا» و«خذوا حذرهم» و«ليأخذوا حذرهم» وذلك لأن هذا المصدر «حذر» أشد لفتًا للانتباه من المصدر الأصلي حَذَرٌ بفتح الحاء وكان الحذر بالكسر آلة يقي بها المرء نفسه.

قَالَ النَّبِيُّ: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ، وَمَنْ يُشَاقِ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾

[الْحِشْرِ: ٤].

وَقَالَ النَّبِيُّ: ﴿وَمَنْ يُشَاقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ تُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصَلِّهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النِّسَاء: ١١٥].

وردت كلمة يشاق مرة واحدة موحدة القاف عندما كان متعلقها واحداً يتصف بالوحدانية وهو الله سبحانه وتعالى، وقد وردت كلمة يشاق مشاة القاف عندما كان الموقف يقتضي المجاهرة، فكانت المجاهرة اللفظية بتكرار حرف القاق منسقة مع المجاهرة المعنوية، قال البقاعي: أظهر القاف في كلمة يشاق إشارة إلى تعليقه بالمجاهرة؛ لأن السياق لأهل الأوثان وهم مجاهرون، وينضاف إلى ذلك أن الآية فيها مجاهرة أخرى وهي قوله تعالى: ﴿مَنْ بَعْدَ مَا بَيَّنَّ لَهُ الْهُدَى﴾، فبين الهدى مجاهرة بدعوة الحق لهؤلاء الكفار، وهذه هي المرة الوحيدة التي ورد فيها التعبير بكلمة يشاق.

١٣ - يثرب والمدينة:

قَالَ النَّبِيُّ: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنْفِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ﴾ [التَّوْبَةِ: ١٠١]، وقال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ﴾ [التَّوْبَةِ: ١٢٠]، وقال تعالى: ﴿يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ﴾ [الْمَائِدَةِ: ٨]، وقال تعالى: ﴿لَئِنْ لَمْ يَنْهَ الْأُنْفِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِبَنَّكَ بِهِمْ﴾ [الْأَحْزَابِ: ٦٠].

هذه هي المواضع التي ذكرت فيها مدينة رسول الله ﷺ، ولم يذكر بلفظ يثرب إلا في موضع واحد وهو: ﴿وَإِذْ قَالَتْ طَافِيَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا﴾ [الْأَحْزَابِ: ١٣] تجد في ثلاثة مواضع ذكرت لفظة المدينة بتسمية من الله عزَّ

وجلّ لها، أما لفظ يثرب إنما استعمله المنافقون كما في آية الأحزاب؛ لأن المنافقين في هذا الوقت كانت لهم قوة وشوكة وأرادوا تثبيط المسلمين عن الدفاع عن المدينة، وأما في آية سورة المنافقون فقد كان اسم المدينة قد استقر ولم يعد مجالاً لأن يقولوا: «يا أهل يثرب»، وذلك حين انكسرت شوكة هؤلاء المنافقين وضعفت قوتهم.

خلاصة القول لم يقبلوا لفظ «المدينة» حتى إذا ضعفت شوكتهم وقويت شوكة المسلمين قبلوا اسم المدينة وتركوا استعمال اسم يثرب.

وبعد أخي الحبيب،

فإن الحديث عن الإعجاز البلاغي في القرآن بحرٌ لا ساحل له ومهما تكلم فيه المتكلمون فسوف تبقى فيه أسرار كامنة ومعاني غائبة يغترف منها كل جيل ما يناسبه، ويكشف منه كل عالم ما يلائمه، ولن يحيط واحد من أولئك بجميع معاني الإعجاز في نوعٍ واحد من إعجازه، فكيف ووجوه إعجاز القرآن كثيرة متجددة لا يزال العلم يكتشف منها وجوهاً متعددة يوماً بعد يوم، فالقرآن كلام الله، وكفى بذلك وصفاً ليعلم مدى عظّمته وإعجازه.

ولعل من المناسب في ختام الحديث عن الإعجاز البلاغي في القرآن أن أذكر هذا الحوار بين الدكتور عناية الله المشرقي^(١) والفلكي المشهور السير جيمس جينز يقول الدكتور المشرقي: كان ذلك يوم أحد من أيام سنة ١٩٠٩ وكان المطر ينزل بغزارة وخرجت من بيتي لقضاء حاجة ما فإذا بي أرى الفلكي المشهور السير جيمس جينز الأستاذ بجامعة كامبردج وإذا هو ذاهبٌ إلى الكنيسة والإنجيل والشمسية تحت إبطه فدنوت منه سلّمتُ عليه فلم يرد عليّ فسلمتُ عليه مرة أخرى فسألني: ماذا تريد مني؟ فقلت أمرين الأول هو أن شمسيّتك تحت إبطك رغم شدة المطر فابتسم السير جيمس

(١) الدكتور المشرقي من أعظم علماء الهند في الطبيعة والرياضيات ويتمتع بشهرة كبيرة في الغرب لاكتشافاته العديدة وأفكاره الجديدة وهو أول من عرض فكرة القنبلة الذرية غير أنه ترك المجال العلمي وخاض غمار السياسة نظراً لسوء حالة المسلمين في الهند «الإسلام يتحدّى» ص [١٣٣].



وفتح شمسيته على الفور، فقلت له: وأما الأمر الآخر فهو ما الذي يدفع رجلاً ذائع الصيت في العالم مثلك أن يتوجّه إلى الكنيسة؟!

وأمام هذا السؤال توقف السير جيمس لحظة ثم قال: عليك اليوم أن تأخذ شاي المساء عندي، وعندما وصلتُ إلى داره في المساء خرجت ليدي جيمس في تمام الساعة الرابعة بالضبط وأخبرتني أن السير جيمس ينتظرنِي، وعندما دخلتُ عليه في غرفته وجدتُ أمامه منضدة صغيرة موضوع عليها أدوات الشاي وكان البروفيسور منهماكُمَا في أفكاره، وعندما شعر بوجودي سألتني: ماذا كان سؤالك؟ ودون أن ينتظر ردي بدأ يلقي محاضرة عن تكوين الأجرام السماوية ونظامها المدهش وأبعادها وفواصلها الغير متناهية وطرقها ومداراتها وجاذبيتها وطوفان أنوارها المذهلة حتى إنني شعرت بقلبي يهتز بهيبة الله جَلَّ جلاله.

أما السير جيمس فوجدتُ شعر رأسه قائماً والدموع تنهمر من عينيه ويدها ترتعدان من خشية الله، وتوقف فجأة ثم بدأ يقول: يا عناية الله عندما ألقى نظرة على روائع خلق الله يبدأ وجودي يرتعش من الجلال الإلهي، وعندما أركع أمام الله وأقول له: إنك لعظيم أجد أن كل جزء من كياني يؤيدني في هذا الدعاء وأشعر بسكون وسعادة عظيمين وأحسُّ بسعادة تفوق سعادة الآخرين ألف مرة أفهمت يا عناية الله لماذا أذهب إلى الكنيسة؟

ويضيف عناية الله قائلاً: لقد أحدثت هذا المحاضرة طوفاناً في عقلي فقلت له: يا سيدي لقد تأثرت جداً بالتفاصيل العلمية التي ذكرتها لي وتذكرتُ بهذه المناسبة آية من كتاب الله عزَّ وجلَّ، فلو سمحتم لي أن أقرأها عليكم، فقال: بكل سرور، فقرأت عليه الآية التالية: ﴿وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَعَرَبِيٌّ سُودٌ وَمِنَ النَّاسِ وَالْدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ، كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فَاطِمَةُ: ٥٣]، فصرخ السير جيمس قائلاً: إنما يخشى الله من عباده العلماء؟!!

مدهش! وغريب وعجيب جداً!! أن الأمر الذي كشفت عنه دراسة ومشاهدة استمرت خمسين سنة من أنبأ محمدًا به؟ هل هذه الآية موجودة في القرآن حقيقة؟ لو كان الأمر كذلك فاكتب شهادة مني أن القرآن موحى من عند الله.

ثم يستطرد قائلاً: لقد كان محمدٌ أمياً ولا يمكنه أن يكشف عن هذا السر بنفسه، ولكن الله هو الذي أخبره بهذا السر^(١).



(١) «الإسلام يتحدى» لوحيه الدين خان، ص (١٣٣-١٣٤)، ط. المختار الإسلامي.